Produced with a Trial Version of PDF Annotator - www.PDFAnnotator.com

تحريات آثارية في شمالي نوميديا -شبكة العمران مــادور Madauros نموذجــاً

أ.د. محمد البشير شنيتي•

مــادور Madauros (مداوروش)

I- الموقع و الخصائص الجغرافية

II- التسمية والأصــول الأولى لمــادور

III- المدينة الرومانية وتطورها

أ- معــالم المدينة من خــلال أطلالها

1- الفوروم

2- المسرح

3- الحمامات

أ- الحمام الكبير

ب- الحمام الصغير

4- القلعة البيزنطية

ب- المجتمع و الثقافة –أبولوس، ملكسيم.

• أ.د. محمد البشير الشنيتي، جامعة الجزائر.

الموقع الجغرافي لمـــادور

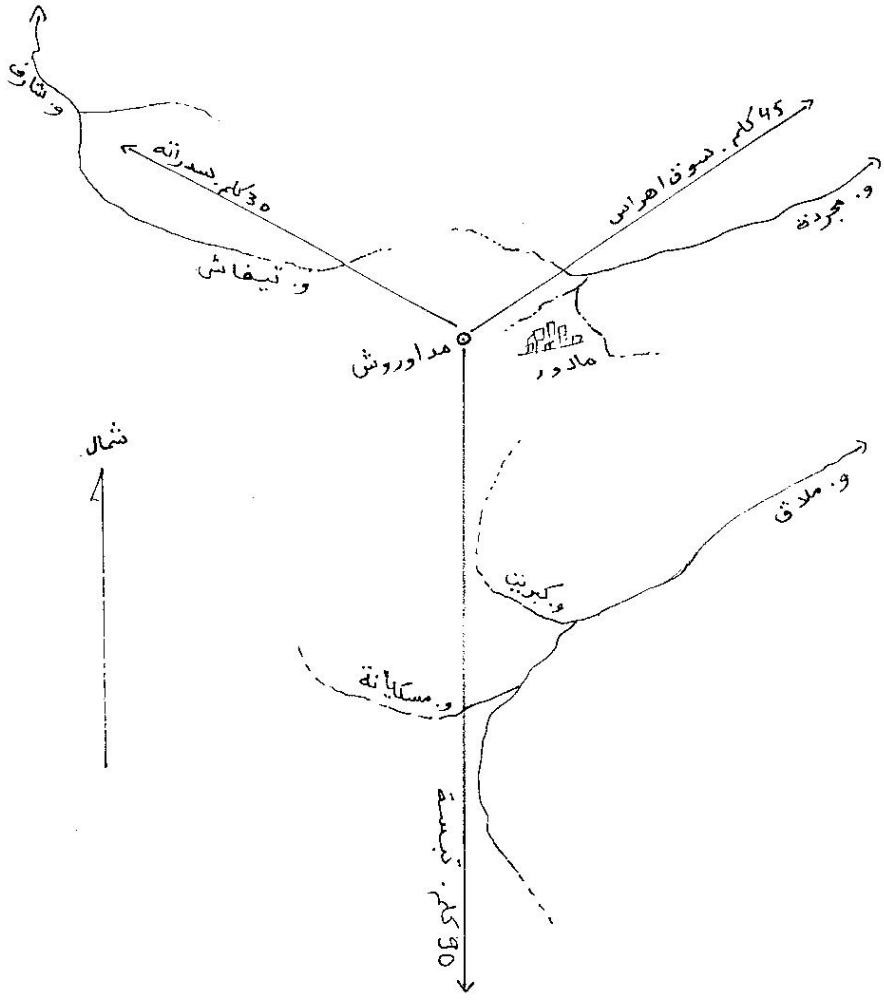

محمد البشير شنيتي

مخطط طلاحي لأهم معالم مادور

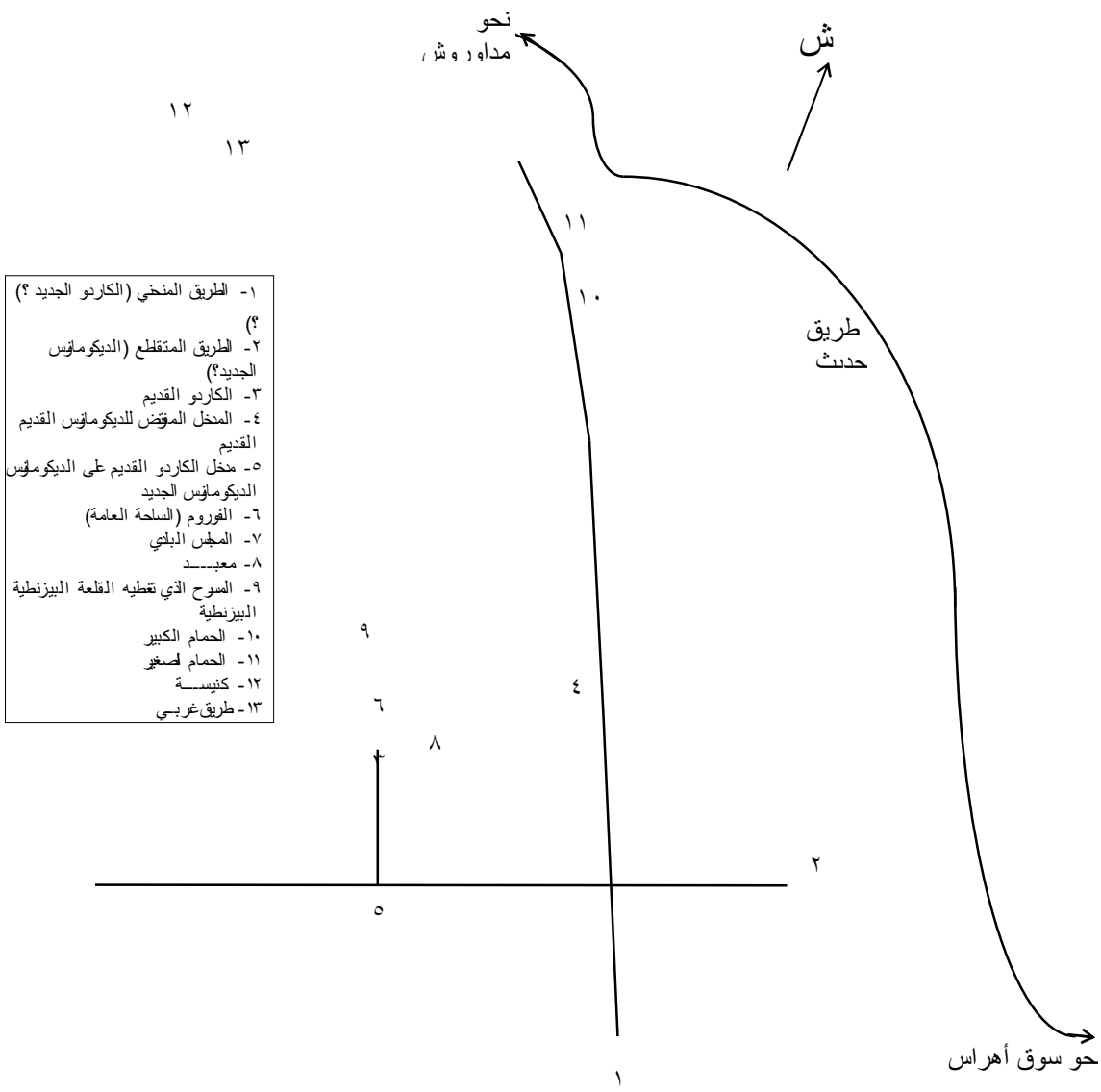

١- الطريق المنخي (الكاردو الجديد ؟)
٢- الطريق المتقطع (الديكوماوس الجديد؟)
٣- الكاردو القديم
٤- المنخل المفوض للديكوماوس القديم
٥- مدخل الكاردو القديم على الديكوماوس القديم
٦- الفوروم (الساحة العامة)
٧- المجلس البلدي
٨- معبـــد
٩- السوح الذي تغطيه القلعة البيزنطية البيزنطية
١٠- الحمام الكبير
١١- الحمام الصغير
١٢- كنيســـة
١٣- طريق غربـي

I- الموقع والخصائص الجغرافية

عندما تسلك الطريق الرابط بين مدينة تبسة (تيفستة ***Theveste***) ومدينة سوق أهراس (تغاست ***Thagaste***) فإنك ستمر بمداوروش بعد قطعك مسافة ما يقرب من ٩٠ كلم، وعندها تتراءى لك أطلال كبيرة جاثمة على ربوة تقع إلى الشرق بمحاذاة نفس الطريق الموصل إلى سوق أهراس وعلى بعد حوالي سبع (٧) كيلومترات من مداورش، إنها خرائب مادور ***Madouros*** القديمة مسقط راس الكاتب اللاتيني الشهير أبوليوس ***Apulée***، وهي إحدى الحواضر البارزة في بلاد النوميد.

تتربع مادور على السفح الشمالي لجبل بوسوسو المعروف بجبل مداوروش، محتلة مداوروش، محتلة موقعا يشرف على منطقة فسيحة يمكنك أن تطلق بصرك في جهاتها الثلاثة جهاتها الثلاثة (جنوب- غرب- شمال) إلى آفاق بعيدة. وإذا تمعنت حولك، وأنت واقف على واقف على المشارف الشرقية لمادور، تجد نفسك عند نقطة تقسيم المياه. حيث ترى أن منابع أن منابع وادي الحمام، وهو أحد الروافد العليا لنهر مجردة ***Bagradas***، تنطلق بالقرب من مادور متغذية من منابع السفوح الشمالية لجبل بوسسو. كما تتراءى لك غير بعيد غير بعيد شعاب وادي كبريت المغذي لوادي ملاق (***Muthul***)، وتلاحظ في الجهة الغربية الجهة الغربية منحدرات وادي تيفاش أحد مكونات وادي شارف المندفع نحو السيبوس. وبذلك السيبوس. وبذلك تكتشف أن مادور تمثل نقطة جغرافية متميزة، فهي قائمة في منطقة منطقة إنتقالية تفصل بين إقليمين جغرافيين متباينين: إقليم السهوب الرعوي الممتد نحو نحو الجنوب، وإقليم السهول الزراعية الواقع إلى الشمال، وكأن مدينة مادور أريد لها أن لها أن تنهض بين عالمي الرعي والزراعة فتعايش البدو والزراع في آن واحد. وربما هذا وربما هذا الجمع بين المفارق هو الذي أوحى إلى ابن هذه المدينة أبوليوس لأن يقول بأن يقول بأن نصفه جيتولي ونصفه الآخر نوميدي[1] كناية عن تلاحم نمطين اجتماعيين في هذه في هذه المدينة وإقليمها، وهما الجيتول الرعاة والنوميديون الزراع. ذلك أن السهول الواقعة إلى الجنوب الغربي تعتبر بلاد رعي في الحاضر كما كانت في الماضي البعيد. في البعيد. في حين ان الاراضي الصالحة للزراعة لا تظهر بوضوح سوى على مسافة قصيرة الى قصيرة الى الجنوب من مداوروش. لكن مدينة مادور تتوسط اراضي زراعية خصبة وتتوفر حولها خصبة وتتوفر حولها مياه جوفية وسطحية غزيرة مما جعل المدينة تصطبغ بالصبغة الفلاحية بالصبغة الفلاحية وهو مايظهر من الشواهد الاثرية بها، حيث تكثر مطاحن الحبوب ومعاصر

[1] Apulée, apologie,24

ومعاصر الزيت بصفة ملفتة للانتباه . وسوف نعرض لذلك في موضع آخر من هذا البحث. البحث.

II- التسمية والاصول الاولى لمادور

احتفظت مادور باسمها *Madaur* عبر العصور منذ نشأتها إلى اليوم ،بحيث لم يطرأ عليه تغيير أو يعوضه اسم آخر، ماعدا تحريف بسيط اعتراه تبعا لألسنة الأقوام المتعاقبة على المنطقة، إذ أن لفظ مداوروش الحالي الذي يطلق على قرية حديثة بالقرب من أطلال المدينة القديمة هي مادوروس *Madauros* عند الرومان، مع تحريف في التلفظ اقتضته سلاسة اللغة المحلية.

ومن جهة أخرى، جاء عند الأديب أبوليوس، أصيل مادور، ان هذه المدينة كانت تابعة كانت تابعة للملك النوميدي سيفاكس[٢] ثم انتقلت إلى سيادة ماسينيسا بموافقة الرومان، الرومان، وهي اشارة تفيد أن إقليم مادور بماكان يحتوي عليه من أشكال العمران كان ذا كان ذا أهمية قبل الاحتلال الروماني بزمن طويل، إذ أن الأحداث المتعلقة بتنازع السيادة السيادة على هذا الاقليم بين الملكين النوميديين تعود إلى أواخر القرن الثالث قبل ميلاد ميلاد المسيح، وهي فترة تسبق إنشاء الرمان مستعمرتهم في مادور بأكثر من ثلاثة قرون لم قرون لم يعثر على شاهد عمراني لها في أطلال المدينة الرومانية، وإن كانت التنقيبات التنقيبات الأثرية لم تتعمق الى ماتحت السوية الرومانية في هذا الموقع. لكن هنالك شواهدحياة بشرية بدائية لأناس خلفوا آثارهم في مدافنهم بالقرب من الحاضرة الرومانية الرومانية ربما تتوغل إلى ماقبل التواجد الروماني هنالك بزمن بعيد، وتتمثل تلك المدافن في مايعرف بقبور المصاطب التي يزخر بها الريف النوميدي خاصة في الجهات الجهات الشمالية الغربية من مادور حيث تنتشر بكثافة. وهنالك نقيشة ليبية ذات مضون مضون جنائزي عثر عليها بالقرب من القلعة البيزنطية الجاثمة على المسرح الروماني، لكن الروماني، لكن عهد هذه النقيشة متأخر فيما يظهر، ذلك ان هذه النقيشة لاتحمل إشارة إلى إشارة إلى تاريخ كتابتها. ولدينا في أسماء من سكنوا المدينة الرومانية مادور عبر عصور عصور حياتها ما يفيد بأن نسبة كبيرة منهم ذووا أصل ليبي أو ليبي-بوني بالنظر إلى إلى مكونات أسمائهم، ممايضيف دليلا آخر على عمران إقليم مادور قبل نشأة المستعمرة المستعمرة الرومانية فيه.

III- المدينة الرومانية وتطورها

[٢] عثرنا أثناء التحريات على قطعة نقدية للملك سيفاكس بالضاحية الشرقية للموقع الأثري، أنظرصورتها في ملحق الأشكال.

عندما ظهر كتاب التاريخ الطبيعي *Histoire Naturelle* للكاتب اللاتيني بلينوس القديم *Pline l'ancien* عام ٧٧ ميلادي، لم تكن مدينة مادور ضمن قائمة المدن الرومانية الرسمية، حيث لم يرد ذكرها في هذا الكتاب الذي حرص فيه صاحبه على تدوين مراكز العمران الهامة في كافة المناطق الخاضعة لروما.

تشير النقوش اللاتينية المعثور عليها بأطلال مادور إلى وجود تنظيم روماني بلدي روماني بلدي في مادور في عهد الإمبراطور نيرفا(٩٦-٩٨ م)، حيث تضمنت إحدى النقوش إسم النقوش إسم جندي متقاعد كان في الفيلق الثالث الأوغسطي شغل منصب عضو في المجلس البلدي المجلس البلدي *Decurion* لمادور[٣]. ولكن يفهم من مضامين عدد من النقائش اللاتينية اللاتينية أن ذلك حدث في أواخر القرن الأول الميلادي وفي عهد الأسرة الفلاقية التي حكمت التي حكمت الإمبراطورية فيما بين ٦٩ و٩٦ م. إذ سميت مادور بالمستعمرة الفلاقية لقدماء لقدماء الجنود "كولونيا فلافيا أوغسطا فتيرانوروم مادورانسيوم *Colonia Flavia Flavia Augusta Veteranorum Madourensium*"[٤]. وقد سجلت ضمن ضمن قائمة الأسماء المنسوبة إلى القبيلة الفلافية المدعوة كويرينا *Quirina*.

وقد عرفت منطقة شرقي الأوراس نشأة عدد من المستوطنات أو تطور حواظر نوميدية سابقة إلى مستوى المستوطنة الرومانية في هذه الفترة التي أحكم فيها الجيش الروماني سيطرته على هذه الجهة وأبطل فعالية ثورات قبائل الجيتول فيها. وكان لتمركز الفيلق الثالث الأوغسطي في حيدرة *Ammaedara* ثم في تبسة *Theveste* أثر بارز في شيوع الأمن والإستقرار في المناطق الواقعة إلى الشمال من مقر الفيلق المذكور.

يظهر أن تأسيس مستوطنات قدماء الجنود *Veteranae* والسهر على تنظيم شؤونها وأمنها كانت إحدى مهام القائد الأعلى للفيلق المذكور الذي كان يقوم بهذه المهام نيابة عن الإمبراطور في المقاطعة الإفريقية.

شهدت مادور تنظيما مدنيا رومانيا منذ عهد مبكر، إذا احتفظت لنا الوثائق بشواهد ذلك التنظيم ممثلة في أسماء الهيئات البلدية وأسماء الأشخاص الذين مارسوا وظائف مارسوا وظائف ذلك التنظيم، أمثال الأياديل والديومفيرات والكويستورات وكذلك الفلامين الفلامين (كهان الطقوس الإمبراطورية) وغيرهم[٥]. كما أشارت النقوش اللاتينية الملتقطة من

[3] Inscriptions latines de l'Algerie:(I.L.A),2070.

[4] I.L.A., 2152.

[5] I.L.A.,2090; 2030; 2128.

الملتقطة من موقع مادور إلى أن سكان المدينة كانوا موزعين على أحياء[٦] على شاكلة سكان شاكلة سكان مدينة روما التي كانت مثلا أعلى لجميع التنظيمات المدنية في المستعمرات، المستعمرات، وأنه كان لسكان الأحياء الحق في المشاركة في اتخاذ قرارات تهم سكان البلدة سكان البلدة وتنظم شؤونهم وذلك عن طريق التصويت، ومنها كذلك ما يتعلق بإنشاء المباني بإنشاء المباني العمومية ذات الطابع الشرفي[٧] خاصة في العهد الإمبراطوري الأول الذي الأول الذي تمتعت خلالهمادور بوضعية متميزة وشهدت فيه ازدهاراً مرموقاً.

إن أزهى عهود مادور هي تلك التي عبر عنها ابنها أبوليوس أثناء النصف الثاني الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث، حيث نمت ثروة أعيان المدينة وكثر عمرانها وتبارى أثرياؤها في الإنفاق على الإنشاءات العمرانية ذات النفع العام وتزيين وتزيين المدينة وإقامة المعالم التذكارية والفنية بها. وكان والد أبوليوس الذي شغل منصب ديومفير *Duumvir* من أثرياء القوم حيث ترك بعد وفاته ثروة طائلة وأموالا وأموالا هائلة قدرت بمليوني وحدة نقدية رومانية (سيسترس)[٨]. كما تحدثت وثائق مادور عن مادور عن أحد أعيان المدينة الذي دفع مئتي (٢٠٠) ألف سيسترس نفقة لترميم الساحة الساحة العامة (فوروم *Furom*)[٩] وذلك أواخر القرن الثالث.

وعموما فإن مادور بلغت أوج ازدهارها في العهد السفيري (أسرة الإمبراطور الإمبراطور سبتميوس سفيروس) شأنها شأن كثير من المدن الإفريقية، حيث أن جل المنشآت المنشآت المعمارية الموصوفة بالطابع الترفيهي فيها قد شيدت في ذلك العصر كالحمامات كالحمامات والمسرح وأقواس النصر[١٠]، لكن ذلك الإزدهار أخذ في التراجع رويدا رويدا في رويدا في العهد الإمبراطوري المتأخر، حيث تعرضت مادور لضربات الثوار المور، وأصابها المور، وأصابها ضرر بالغ في العهد الوندالي حيث هجرت تماما وهدمت. ولما احتل احتل البزنطيون المنطقة أقاموا على أطلال مادور قلعتهم التي لا تزال جاثمة على جزء هام جزء هام من الفوروم والمسرح الروماني مشوهة معالم المدينة العتيقة. خاصة وأن بُناة بُناة القلعة اجتثوا الحجارة المنحوتة من المباني القديمة وبنوا بها الأسوار، فكان عملهم ذاك تخريبا مقيتا.

أ- معالم المدينة من خلال أطلالها

6 I.L.A., 2130.

7 I.L.A., 2145; 2152.

8 Apulée, Appologie, 23

9 I.L.A., 2120.

10 Ibid

تحتل المساحة العمرانية لمادور حوالي عشرين (٢٠) هكتار مضافا إليهما المساحة التابعة للمدينة كتلك التي استخدمت كمقابر أو منشئات أخرى متممة، ومع ذلك تظل مادور أقل حجما من تبورسيكو النوميدية (خميسة) بثلاث (٣) مرات، مع أن هذه الأخيرة قائمة على أرضية شديدة التعقيد وبالغة الصعوبة من الناحية الطبوغرافية.

هذا وقدر بعض الباحثين أن عدد سكان مادور لم يتجاوز عشرة آلاف نسمة[١١] بناءًا على نسمة[١١] بناءًا على منشآتها العمرانية ذات الاستخدام الجماعي كالمسرح الذي لاتتجاوز سعته لاتتجاوز سعته لأكثر من ألف ومئتي متفرج ، وان كان تقدير عددسكان المدن الرومانية بناء الرومانية بناء على أحجام منشآت التسلية فيه تجاوز لاتقره القواعد العلمية للبحث التاريخي، لكن هذا الأمر لايعنينا هنا.

إن أعمال التنقيب المحدودة التي أجريت بموقع مادور لا تسمح بوضع مخطط واضح مخطط واضح للمدينة الأولى (المستعمرة الرومانية) ، بحيث أن الإضافات العمرانية العمرانية والتغييرات التي جرت لاحقا طمست معالم المرتسم الذي يمثل نواة المدينة . . وأهم تشويه أصاب قلب مادور يتمثل في العمل الذي قام به البيزنطيون في القرن السادس السادس الميلادي لما بنوا حصنهم هناك وماتبع ذلك من بناءات سكنية فوضوية لم تتبع مخطط تتبع مخطط المدينة الأصلي حيث قامت الأحياء هنا وهناك على أنقاض مادور وبمادة بناء وبمادة بناء اقتلعت من الأطلال دون مراعات لقيمتها الفنية أو التوثيقية، حيث أصبح من أصبح من المألوف لدى المهتمين بنقوش مادور أن يجدوا قطع النص الواحد مبعثرة في أماكن في أماكن متباعدة في أطلال المدينة بفعل تهشيم الحجارة المنقوشة لغرض البناء ، فهناك فهناك اثنتا عشرة نقيشة لاتينية على الأقل حدث لها ذلك[١٢].

يشق مادور طريقان متعامدان (١،٢ في المخطط الاصطلاحي)، أحدهما من الجنوب من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي، والآخر من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي، وهذا الغربي، وهذا الإتجاه الذي يأخذه الطريقان منحرف نسبيا عن الإتجاه الذي يأخذه عادة عادة الطريقان الرئيسيان في المدن الرومانية وهما الكاردو والديكومانوس، بالإضافة إلى بالإضافة إلى أن الطريق المتجه من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، وهو المحاذي المحاذي للحمامات، غير مستقيم، إذ ينحرف قليلا نحو الجنوب قبل أن يتعامد مع الطريق الطريق الآخر. نجم عن تقاطع هذين الطريقين بروز أربعة أقسام أو أحياء لمادور، أبرزها أبرزها ما وقع في الزاوية الغربية الذي يشمل الساحة العامة (فوروم) (رقم ٦ في المخطط) المخطط) والمسرح (رقم ٩) والقلعة البيزنطية التي تغطيه ووحدات سكنية هامة ومجموعة ومجموعة كبيرة من معاصر الزيت المصطفة بجانب الطريق المحاذي للحمامات (وسوف نسميه

11 GSELL.op. cit.p.18.

12 I.L.A., 2045; 2052; 2055; 2082; 2095; 2101; 2103; 2115; 2145; 4011;

(وسوف نسميه بالطريق المنحرف تسهيلا للإستعمال)، وهذا الحي الذي يحتوي على المباني على المباني الرسمية اعتبره المؤرخون أقدم الأحياء وربما هو النواة الأولى للمستعمرة للمستعمرة الرومانية. وقد جرت التنقيبات الأولى بهذا الجزء من المدينة بينما الأجزاء الأجزاء الثلاثة الأخرى لا تزال معالمها غير واضحة وأغلبها مغمور تحت الأنقاض باستثناء الأنقاض باستثناء الحمامين (الكبير والصغير) (رقم ١٠ ،١١) الواقعين أسفل الطريق الطريق المنحرف باتجاه الشمال، إذ تمت دراستهما بشيء من العناية ونشرت حولهما معلومات حولهما معلومات مفيدة.

تحتوي الشبكة العمرانية لمادور على عدد من المباني الهامة فضلا عن الفوروم والمسرح والحمامات، إذ يبدو من ظاهر الأطلال أن مجموعات معمارية كثيرة تنتمي إلى فئة المباني ذات الوظائف المشتركة، وبعضها ربما كان مساكن لأعيان المدينة، وجاء في النقوش اللاتينية المعثور عليها في أماكن مختلفة من أطلال المدينة ما يشير إلى عدد كبير من أماكن التعبد بحيث يمكن استخلاص حوالي ١٢ معبداً كانت منتشرة في أنحاء المدينة، غير أن بقاياها غير مضبوطة حاليا من بين الأطلال باستثناء بعض المعالم التي افترض بعضهم أنها كانت معابد أو كنائس (أرقام:٨، ١٢، ١٣،١٤).

أما منشآت الري الحضري فهي بارزة في بعض وجوهها، من ذلك أن القناة الرئيسية التي كانت تمون الحمامات أمكن التعرف عليها لأنها توجد تحت الطريق المنحرف، وهي مجهزة بنفاسات منتظمة المسافات، ويظهر أنها تنطلق من خزان رئيسي كان موجودا عند قبة سيدي ابراهيم بالربوة المشرقة على مادور من الجهة الشرقية. إذ أن اتجاه القناة المذكورة آخذ نحوها. وبنسبة ميل دقيقة تحافظ على نسبة تدفق واحدة ومحسوبة. وبذلك فالقناة المذكورة التي تنكشف إلى السطح عند الحمامات تأخذ في التعمق كلما تقدمت نحو الخزان الرئيسي حيث يصل عمقها حدا كبيرا عند نصف المسافة بحيث يتعذر التحقق من مقدار عمق بقية المسافة.

وإلى جانب هذه القناة هنالك عدد ملحوظ من الآبار، منها ما كان مستعمل لتجميع مياه المطر ومنها ما كان خزانا خاصا للاحتفاظ بالماء للحاجة. وتوجد منابع حالية (عيون) إحداها في الجهة الجنوبية للمدينة وأخرى في الجهة الشمالية منها. وهي موردان أساسيان لسكان الضواحي في الوقت الحاضر.

أما المنابع الأصلية لمياه ***مادور*** فهي على بعد بضع كيلومترات إلى الشرق بجبل بوسوسو. وقد تم العثور هنالك على بقايا بناء روماني لرفع المياه وتوجيهها عبر قناة تحتية (أكدوك) إلى ***مادور***.

أهم معالم مادور

١- الفوروم Forum (الساحة العامة) وتوابعها (رقم ٦ في المخطط الإصطلاحي)

يعد الفوروم من أهم المعالم المعمارية لـ***مادور*** بالنظر لكونه ورد في كتابات الأولين أمثال *ماكسيم Maxime* و *أوغسطين Augustin* اللذين تبادلا عبارات المدح والثناء لما كان يزين هذا المعلم الرئيسي في مدينة ***مادور***. بالإضافة إلى أنه ذكر في عدة نقائش لاتينية بمناسبة القيام بأعمال ترميم أو تجميل فيه.

تم التعرف على الفوروم دونما عناء أثناء الحفرية التي جرت بـ***مادور*** عام ١٩١٧ م. ودامت ثلاث سنوات تم خلالها إجلاء أهم المعالم المحيطة بالفوروم، فانكشفت تفاصيل هذه الساحة وقرئت محتوياتها أثريا وفنيا.

للفوروم مدخل واضح من الجهة الجنوبية يربطه بالكادور، حيث يظهر بعرض حوالي ٤،٥٠م، في حين عرض الكادور ٦،٢٠ م، وهو مدخل يؤدي إلى الفوروم بسلم حجري بدرجتين منعا لدخول العربات لأن ذلك كان محظورا في المدن الرومانية عموماً.

٢- المسرح (رقم ٩ في المخطط)

يقع المسرح الروماني بجوار الساحة العامة وعلى الركن الغربي منها، وهو يستند إلى سورها المسند المقام على هذه الجهة، وبذلك يكون معها مجموعة معمارية متناسقة، وقد وفر هذا الجوار تقنيا بناء الجدار الخارجي لأروقة المسرح بصورة جيدة لكنه وجه مبنى المسرح نحو الجنوب الشرقي، وبهذا لم يحافظ هذا الوضع على التوجيه التقليدي الذي يجعل مدرج المتفرجين مواجها للشمس بصفة جيدة، لكن هذا الوضع هنا ليس مخالفا للمألوف بصفة تامة، حيث نلاحظ انحرافا جزئيا في اتجاهات مسارح أخرى بسبب عوائق طبوغرافية.

يتشكل مبنى المسرح من سور دائري سمكه ٠،٧٠ م، وهو قائم على دعائم متينة مكونة من حجارة كبيرة الحجم، يحضن هذا السور كافيا *Cavea* المسرح، ولا يزال جزء كبير منه قائما، غير أن البيزنطيين جردوه من العناصر الزخرفية التي كانت تعلو السور، أما القسم المقابل المكون لجناح الممثلين فلا يزال يرتفع إلى علو أكثر من ثمانية أمتار في بعض جهاته وذلك راجع لكونه استخدم كعنصر مكمل لمبنى القلعة البيزنطية.

كانت مباني التسلية ذات النفع العام في المدن الرومانية من الأعمال الخيرية الخيرية التي يتبارى على القيام بها أثرياء المدينة، ومسرح مادور يدخل في هذه المنجزات الفردية حيث بناه شخص يدعى غابينوس سابينوس *M.Gabinus Sabinus*

Sabinus الذي خلد هذا الإنشاء في نقيشة لاتينية وضعها لهذا الغرض الإشهاري[١٣].
الإشهاري[١٣].

وحسب الظاهر أن هذا المسرح خرج إلى الوجود في عهد الأباطرة السفيريين وفي زمن إعادة ترميم الساحة العامة وإنشاء الحمامات وإقامة منشآت زخرفية لتجميل مادور في عهد ازدهارها.

سعة مسرح مادور حوالي ١٢٠٠ متفرجا كانوا يتوزعون على مواقع معينة في المسرح في المسرح منهم ١٢٠ مقعدا شرفيا قرب الخشبة، و٦٥٠ مقعدا على المدرجات، و٢٠ مقعدا و٢٠ مقعدا متميزاً، و٤٠٠ مقعدا تحت الأروقة العليا *Portique*، لقد قدر عدد المقاعد على أساس أن الواحد منها يشغل ٠،٤٠ م من الدرج المشترك.[١٤]

إن وضعية المسرح حاليا سيئة ولا توجد أية إجراءات للمحافظة على هذا المبنى الهام في مادور التاريخية.

٣- الحمـامـات (رقم ١٠ و١١ في المخطط)

تتوفر خرائب مادور على عدد من الحمامات الخاصة شأنها شأن المدن ذات الطابع الروماني، حيث كانت العناية بالهندام أحد اهتمامات الطبقة المتميزة في مجتمعات المدن، ولذلك كانت تتباهى بإقامة الحمامات العمومية والخاصة التابعة لدور الأثرياء، لكننا سنقتصر هنا على وصف الحمامين الكبير والصغير الواقعين في الطرف الشمالي الغربي من خربة مادور.

يقع الحمامان إلى جانب بعضهما لكنهما لا يشكلان مجموعة معمارية متجانسة من حيث النظام المعماري لكل منهما، فمخطط كل واحد مختلف عن الآخر، فضلا عن كونهما يتمايزان من حيث الحجم والمواصفات التقنية كما سيأتي باختصار، وبالنظر إلى حالتهما العامة فإنهما من بين أهم الحمامات الرومانية بشمال إفريقيا وضوحاً، إذ أن كثيراً من عناصرهما المعمارية بقيت سليمة، وأطلالهما قائمة إلى علو يتجاوز أربعة أمتار في بعض الأماكن من أجزاء البناء القائم حاليا بعد أن أزيلت الأنقاض عنها، فكثير من الجدران قائمة إلى علو جيد، وكذلك المداخل التي احتفظ بعضها بعوارضه وعتباته سالمة، وكذلك بعض العناصر الزخرفية الداخلية في القاعات.

بنيت الجدران في كلا الحمامين من الدبش *Moellon* المخلوط بالإسمنت القوي، أما الزوايا وإطارات الأبواب والنوافذ والأقواس فهي من الحجارة المنحوتة، بينما اتخذت سقف الحجرات شكلاً مقبباً *Voûtée*.

13 I.L.A., 2121.

14 Gsell, Mdaourouch ...op. cit.

أ- الحمـام الكبـير

أبعـاد الحمـام الكبيـر ٤١ × ٣٩ متـراً عمومـا، إذ أنّ مرتسـمه غيـر مسـتقيم الجوانب.

ب- الحـمـام الصغـير

يقع هذا الحمام على بعد حوالي ٢٠ مترا من الحمام الكبير، وينحرف عنه قليلا من حيث الإتجاه تماشيا مع انحراف الطريق المحاذي له، وهو الطريق المنحرف، أي أنه يقع في الجهة الشمالية الغربية بالنسبة للحمام الكبير. (له شكل مستطيل عموما بأبعاد ٣٠،٢٠ × ٣٣،٨٠ مترا). ورغم شبهه بالحمام الكبير من حيث المنظر العام والمدخل وتوزع القاعات الباردة والساخنة إلا أنه يختلف عنه في تموضع بعض المرافق وأشكال القاعات وأحجامها.

ولكن كيف يفسر تجاور هذين الحمامين المتعاصرين؟ إن بعض المدن الرومانية كان الرومانية كان لها حمامات خاصة تستقبل الرجال والنساء في أوقات مختلفة، ولكن لا توجد لا توجد حمامات خاصة بالرجال *balnea virilia* وحمامات خاصة بالنساء *balnea muliebria* في شمال إفريقيا خاصة حسب معلوماتنا، غير أنه توجد حمامات حمامات صيفية *Thermae aestivales* وحمامات شتوية *Thermae hiemales* *hiemales* هناك نقيشة لاتينية تذكر أن لمادور حماماً صيفياً *aestivae*[١٥]. وبما أن وبما أن مدينة مادور من خلال أطلالها لا تتوفر على حمامات عمومية أخرى من غير هذين غير هذين الواقعين في هذا الركن، فإن المؤرخ قزيل *Gsell* يعتقد أن الحمام الكبير كان الكبير كان حماما صيفيا وأن الحمام الصغير كان حماما شتويا.

أما تاريخ إنجاز هذين المعلمين في مادور فلا توجد وثائق تحدده، ولكن يفهم من مضامين النقوش اللاتينية المعثور عليها في أطلال الحمامين أن ذلك الإنشاء تم في أوائل القرن الثالث الميلادي، وهو الزمن الذي برزت فيه بناءات عمومية كبرى في مادور وغيرها من المدن الرومانية بشمال إفريقيا.

٤- القلـعـة البيزنطـية

بنى البيزنطيون قلعتهم على جزء هام من الفوروم والمسرح الروماني بكامله، حيث بكامله، حيث تغطي أطلالها حاليا الركن الغربي من الساحة العامة وجزءا هاما من الطريق الطريق الغربي المنطلق من نفس الساحة بالإضافة إلى المباني المجاورة ثم جميع مكونات مكونات المسرح وما يليه من جميع الجهات من المباني المختلفة التي تعذر التعرف على

15 I.L.A., 2101.

على هويتها بسبب التغيير الذي أحدثه هيكل القلعة في المخطط السابق وكذلك ما انجر عن انجر عن اقتلاع الحجارة من تلك المباني لاستعمالها في بناء القلعة وتسوية الجدران بالأرضية قبل الشروع في إقامة هذا المعسكر البيزنطي الهام.

تقوم القلعة التي لا تزال بعض أجزاء أسوارها مرتفعة إلى علو عشرة أمتار، على أرضية مستطيلة الشكل أبعادها بقياس ٦٦ مترا طولا و٤٢ مترا عرضا، بنيت جدرانها على الطريقة البيزنطية المعروفة وهي أنها تتكون من حائطين داخلي وخارجي من الحجارة المنحوتة وبينهما الدبش المخلوط من عناصر مختلفة، منها كسر الحجارة المنحوتة وقطع الأعمدة الحجرية والتيجان وأجزاء التماثيل والألواح الحجرية المكتوبة (كُسَر نقوش لاتينية) وأفاريز ونصب وطنف وغير ذلك من العناصر الزخرفية المهشمة. يتراوح سمك الجدران مابين ١،٤٥ مترا و٢،٢٠ مترا، كما بلغ ٢،٨٠ مترا من جهة المسرح، أي أنه لم يجر احترام مقياس معين في إقامة هذا الحصن الإستعجالي.

إن الزائر لخرائب مادور تطالعه جدران هذا المبنى البيزنطي من مسافة بعيدة وعندما يصل إلى الموقع ويتجول في ربوعه ينتابه إحساس قابض لما يجد أن هيكل القلعة يجثم على مركز المدينة القديمة ويخفي معالم عدة مباني هامة ويشوه المنظر العام لمادور العتيقة، وبذلك فهو ينبئنا بأن البيزنطيين الذين قصدوا شمال إفريقيا يوما بهدف تحريره من (البرابرة) الوندال والمور الموصوفون بالتخريب، لم يكونوا أقل تدميرا لمعالم الحضارة وشواهد التمدن من خصومهم.

ب- المجتمع والثقافة: أبوليوس، ماكسيم

تتمفصل محاور الموضوع حول عناصر السكان في مادور و أصولهم العرقية اعتمادا على مكونات أسمائهم، و كذا الفئات الاجتماعية التي تعايشت في مادور استنادا إلى وظائفهم كما تنم عنها شواهد قبورهم و دلالات البنية المدنية للطبقات الاجتماعية التي تعايشت في فضاء مادور العمراني، ثم مظاهر الرقي المدني و الازدهار الثقافي الذي اشتهرت به المدينة في فترة مرموقة من تاريخها ممثلا في شخصية أبوليوس Apoleius الأدبية ذات الوزن العالمي في ثقافة إفريقيا اللاتينية. ومدى أخذ المادوريين بأشكال التعبير الجمالي في مدينتهم بناء على الشواهد الأثرية، و كذا مدى ارتباطهم الروحي بالمعبودات المختلفة من خلال ما جسدوه في شواهد قبورهم أو أبنية العبادة، دون أن نهمل مكانة هذه الحاضرة في محيطها المدني بشمال إفريقيا من حيث الصدى المعنوي (الثقافي) الذي تردد في مدن كثيرة في شكل تمجيد و عرفان لشخصية أبوليوس المادوري.

و نختم الدراسة بمحاولة تقييم لأوجه استمرار الأصالة في خضم الاندماج العارم في الحضارة الرومانية كما يظهر في المخلفات الأثرية بموقع مادور.

مكونات المجتمع المادوري:

عناصر السكان

تعايشت في مادور عناصر بشرية مختلفة الأعراق متنوعة الأصول الجغرافية (الأوطان)، و هو ما توثقه الشواهد الأثرية المجسدة في الأسماء التي حملها أفراد مجتمع مادور بمختلف فئاتهم. فعلم الأسماء Onomostique هنا يؤكد لنا هذه الحقيقة ويرشدنا إلى تأصيل سكان مدينة مادور على غرار المدن الإفريقية الأخرى، و إمكانية التعرف على ديناميكية الاندماج المدني التي وضعها القانون الروماني أمام عناصر السكان و شجعت عليها عوامل الجذب الحضاري المتزايد في المدن و فرص الارتقاء الاجتماعي و الاقتصادي المتاحة أمام الأفراد النشيطين.

لقد لاحظ الكثير من الباحثين[١٦] هذه الظاهرة من خلال تركيبة الأسماء وجذورها وجذورها المعبرة عن الانتماءات العرقية و الأقاليم الجغرافية التي انحـــدرت منها، وكذا منها، وكذا الأسر الإمبراطورية أو السيناتورية التي أقرها القانون الروماني كأطر مرجعية مرجعية لتكّني الأشخاص المرفعين إلى درجة المواطنة الرومانية ممن لا يملكونها بالأصالة. بالأصالة.

يجدر التنبيه هنا إلى أن المصدر المعتمد في هذا المجال هو النقوش اللاتينية اللاتينية المكتشفة بموقع مادور، و هي تتجاوز ثمانمائة (٨٠٠) نقيشة[١٧] ، يتعلق معظمها معظمها بشواهد قبور جهزها أصحابها قبل وفاتهم حرصا منهم على التعريف بأنفسهم من بأنفسهم من خلالها، وذلك بذكرهم أعمالهم المحمو دة في حياتهم. و تلك عادة كانت جارية جارية في تلك العهود طبقا لسياق ثقافي اتسمت به المجتمعات الإغريقية- الرومانية خاصة. خاصة. فالأمر يتعلق بوثائق أصلية لا يتطرق إليها الشك. ورغم أن عادة تخليد المتوفى عن المتوفى عن طريق شاهد قبره كانت و لا تزال سائدة عند جميع البشر إلا أن مضامين القبور و مضامين القبور و طريقة كتابتها و إثباتها هي التي تختلف من قوم إلى قوم و من ثقافة ثقافة إلى ثقافة. و هذا الاختلاف يعد أحد معايير التمييز بين خصوصيات الأمم و الحضارات الحضارات عبر التاريخ. فالليبيون؛ سكان شمال إفريقيا الأصليون، مثلا لم يهتم المتوفون المتوفون منهم كثيرا، و ربما إطلاقا، بإيصال رسالة تعريف تاريخية إلى الأحياء المعاصرين المعاصرين منهم أو اللاحقين، عن طريق شواهد قبورهم، لذلك خلت أنصبتهم من التواريخ كما التواريخ كما خلت من ذكر المهن و القيم المتوخاة في الحياة كالاتصاف بالصدق في في المعاملة و إتقان المهنة باعتبار أن ذلك من أهم الفضائل في الحياة، و هي أمور حرص

[١٦] منهم المؤرخ ستيفان غزيل ، أنظر كتابه :Gsell (S) , Khamissa..., II, p. 23-25.

[١٧] هي مجموعة في Inscriptions Latines de l'Algérie , t.I.

حرص المتوفون الرومان و من تشبه بهم على إثباتها في شواهد قبورهم، بالإضافة إلى الشعار إلى الشعار الديني الذي كان أهل هذه الثقافة (الرومانية) يتوجون به شواهد قبورهم.

إن هذا الاختلاف يشكل نقطة ارتكاز لدى الباحثين في تاريخ المدن لتحديد أطوارها، خاصة من حيث تداخل عناصر السكان فيها أو تعاقبهم، فتنكشف هوية المدينة و يتحدد زمن ظهورها أو تاريخ حلول وافدين بها ممن تختلف هويتهم الثقافية و العقائدية عمن سبقهم بها من السكان.كما يمكن رصد مدى تواصل أو تعايش الأعراق في شكل متواز أو مندمج، و ما هو العنصر الأكثر تأثيرا في العناصر الأخرى، إلى غير ذلك من أوجه المقاربة أو المقارنة.

و انطلاقا مما سبق ذكره فإن أنصاب القبور المعثور عليها تعود إلى منتصف القرن الثاني الميلادي عموما، و هذا أمر ملائم من الناحية التاريخية لأن هذا الموقع (مادور) حل به قدماء جنود رومان أواخر القرن الأول الميلادي. و نفترض أنهم كانوا في مرحلة الشباب من العمر عموما، إذ كانوا يسرّحون من الجيش مبكرا عندما يكون الأمن مستتبا و تظهر الحاجة إلى توطينهم في مناطق ذات مواصفات عسكرية مثل ما هو حال موقع مادور، و من ثم عاش أغلب أفراد الرعيل الأول من أولئك المستوطنين عدة عقود من الزمن قبل أن يتقدم بهم السن و يدركهم الموت و يقبرون. و بما أنه لم يعثر بمقابر المدينة على شواهد قبور تعود إلى زمن أقدم من تاريخ إنشاء مستوطنة مادور و استقرار جنود رومان بها، فإن ذلك يؤكد حلول عناصر بشرية جديدة بشكل فجائي بهذا الموقع، معهم ثقافتهم و ديانتهم و قيمهم المادية و المعنوية المغايرة. غير أن هذا لا يعني خلو المكان من أهل البلاد بصفة مطلقة، فشواهد تواجدهم به أكيدة لكنها لا تتوفر على عنصر التأريخ الصريح، فهي عبارة عن بقايا أثرية مطاطة يمكن أن يكون بعضها أقدم من تاريخ إنشاء المستوطنة الرومانية و بعضها يعود إلى زمن لاحق، لكن يتعذر التأكد من ذلك ، فهي قبور ساد نمطها في عصور موغلة في القدم و تواصل العمل بها في العهد الروماني لدى الأهالي ممن لم يندمجوا في الحضارة الرومانية، ومنها المصاطب و قبور الأقباء التي تمثل مكانا بارزا بجوار مدينة مادور من الناحية الجنوبية و هي المسماة حاليا بالدواميس أي الغيران، ومن خصائصها أنها لا تحمل شواهد تأريخها.

<u>الأهالي (اللوبيون =النوميديون)</u> :

تم التعرف من خلال الكتابات اللاتينية (النقوش) بمادور على عشرات الأسماء ذات الأسماء ذات الأصول الليبية و البونية، وهي تتوزع تاريخيا على امتداد حياة هذه الحاضرة. الحاضرة. أي أن هذه الأسماء كان يحملها أشخاص من جميع الأجيال التي تعاقبت على مادور على مادور مما يدل على أن مجتمع هذه المدينة لم يكن رومانيا محضا في أية مرحلة من مرحلة من مراحل تاريخها، و أن هنالك عناصر بشرية ذات أصل ليبي متأثرة بالحضارة

بالحضارة البونية ظلت وفية لانتمائها الثقافي-الاجتماعي في محيط ثقافي–اجتماعي سيطر سيطر عليه نمط الحضارة الرومانية و سادته قيم مختلفة و أساليب حياة مغايرة، بل مارس مارس رجال نخبته المثقفة ضغطا معنويا واضحا على المتمسكين بثقافتهم و لغتـهم و لغتـهم و معتقداتهم القديمة[١٨].

و قد لاحظ غزيل Gsell أن أوائل ضحايا العقيدة المسيحية بمادور التي ظلت ظلت غارقة في الوثنية حتى القرن الخامس، كانوا يحملون أسماء بونية، مثل نمفامو نمفامو Namphamo و معّين Miggin و صني Sanae [١٩]. و في هذا برهان على برهان على تواصل المقاومة المعنوية طيلة الوجود الروماني، و أن مبادرة الأهالي باعتناق باعتناق المسيحية فيه ما يوحي باستمرار الصلة الروحية بين المشرق و المغرب إلى ذلك إلى ذلك العهد[٢٠].

من الأسماء الليبية-البونية التي تكرر وجودها (ذكرها) في نقوش مادور نذكر ما أشار إليه السيد غزيل:

عيبورو Aiburu
عريس Aris
بلزليق Balzillec
بارق Baric
بارح Barh و قد تكرر هذا الاسم في شواهد القبور ست (٦) مرات .
بارغ بعل Barighbal
بريكث Berecth
دودّه Dudda
قدودوس Gududus
قدوده Gududa
يافق Iafic
يسوق Iasuc
مريسا Maresa

[١٨] كان أبولوس و ملكسيم و غيرهما يهزؤون من أولئك الذين ظلوا متمسكين باللغة البونية و الليبية .

[19] Gsell (S.), op.cite.p.23.

[٢٠] راجع كتابنا : التغيرات الاقتصادية و الاجتماعية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال الروماني ، الجزائر ، ١٩٨٢. القسم الثالث ؛ فيه تحليل أوسع للموضوع.

معطن Matun
مطون Metthun
مكجنت Meggent
مزغور Mizgur
نامغيدد Namgidd
نامفيم Namphame
صنامت Sanamt
صموده Semmudah
سدّينSiddin
زابه Zaba
صابه Saba [٢١]...

ورغم أن هذه الأسماء أو الكنيات كانت ضمن تركيبة الاسم الثلاثي على الطريقة الرومانية بحيث تأتي بعد اللقب الروماني أو في المرتبة الثالثة و أحيانا في موضع مغاير تبعا للمكانة المدنية لصاحبها، فإن بنية الاسم الأصلية ظلت سليمة من التحريف إلا من حيث الأواخر أحيانا فتلحقها بعض الأحرف مثل (US) و هي نادرة.

هذا عن الأسماء أما الألقاب فقد اشتهر الأفارقة (اللوبيون) بإطلاق ألقاب على على مواليدهم مشتقة من معاني الشرف و السعادة والإحسان و التقى و التفاؤل و الغلبة... الغلبة... و هي ألقاب لا ترتبط بأمة بعينها أو بحضارة معينة و لكنها قاسم مشترك بين بين جميع البشر و يعبر عنها باللغة السائدة في المجتمع.أي أن الحاملين لهذه الألقاب الألقاب المعبر عنها باللغة اللاتينية ليس بالضرورة أنهم ينحدرون من أعراق غير إفريقية. إفريقية. و قد عثر على كثير من هذه الألقاب في نقوش مادور، و منها : فليكسFelix فليكسFelix المشتق من معنى الإحسان، وقد تكرر عشرات المرات في وثائق مادور، كما عثر مادور، كما عثر على هذا الاسم مكررا في جميع المدن الإفريقية بحيث تجاوز تعداده تعداده ثمانمائة (٨٠٠).و كذا لقب فيكتورVictor المشتق من معنى النصر، وهو مكرر مكرر أكثر من عشرين (٢٠) مرة في صيغة المذكر و تسع عشرة (١٩) مرة في صيغة صيغة المؤنثVictoria .و لقب هونوراتوس Honoratus المنحدر من معنى الشرف معنى الشرف ، و تكرر في نقوش مادور سبعة و عشرين (٢٧) مرة. كما تلقب إناثهم

[21] I.L.A., 2602-2677.

تلقب إناثهم بفورتوناتا Fortunata و هو لقب مشتق من معنى الحظ و تكرر أكثر من أكثر من عشرين (٢٠) مرة في نقوش مادور ، إلى غير ذلك.

و تلقب المادوريون المنتمون منهم إلى أصول محلية (لوبية) بألقاب معبوداتهم فخلفوا لنا شواهد ذلك في نقوشهم الجنائزية و أنصابهم النذورية المعثور عليها في مدينتهم، من تلك الألقاب الدينية : ساتورنينوسSatuninus نسبة إلى أكبر معبود إفريقي ترجم اسمه إلى اللاتينية فأصبح ساتورنوس Saturnus و هو المعبود بعل حامون. لقد لوحظ في النقوش ما يزيد عن عشرين (٢٠) مادوريا تلقبوا بهذا المعبود الشهير فحملوا اسمه، كما حملت ثمانية عشر (١٨) أنثى صيغة التأنيث ساتورنينياSaturnina.

هذا إضافة إلى عدد من الألقاب التي تحمل نسبة قبيلة (عشائرية) أو مدينة مثل: نوميديوسNummidius نسبة إلى شعب النوميد و مادوريوس Madaurius نسبة إلى مدينة مادور و توقنسيس Thuggensis نسبة إلى مدينة دوقة Thugga. و بغض النظر عن كون هذه الأسماء و الألقاب منتظمة حسب القواعد المتبعة في ترتيب تراكيب الأسماء ، أو غير منتظمة بحيث بعضها خرج عن هذه القاعدة من حيث الترتيب أو الاكتمال فأتى مكونا من جزئين أو جزء واحد في نقوش مادور، فإن الذي يعنينا هنا هو أن مجتمع مادور ضم فئة الأهالي التي دلت عليها أسماؤهم و ألقابهم و إن كانت تلك الفئة ضئيلة العدد قياسا إلى العناصر التي وفدت من خارج إفريقيا أو التي اختارت الاندماج الكلي في الفئة المُرَومَنة تماما، هذا إن تقيدنا بمنهجية الدلالة الإحصائية .

<u>الوافدون من إيطاليا و المقاطعات الأخرى:</u>

إن الوثائق التي بحوزتنا عن الأصول العرقية لسكان مدينة مادور لا تشجع على القيام بتصنيف واضح تظهر فيه فئة الوافدين من أصقاع الإمبراطورية الرومانية بصورة واضحة. و العائق في ذلك أن المستوطنين الذين استقروا بهذا الموقع و هم من قدماء الجيش الروماني المرابط بشمال إفريقيا أصولهم الجغرافية متباينة، و كثيرهم لم يحتفظ اسمه بما يشير إلى بلده الأصلي، بحيث صيغت أسماؤهم وفق مقتضيات اندماجهم في المجتمع الروماني لما منحوا حق الانتفاع بالمواطنة الرومانية بعد إنهائهم الخدمة العسكرية، فكان لزاما عليهم اعتناق أسماء العائلات الإمبراطورية التي تحصلوا بفضلها على حق المواطنة الرومانية بإضافة اسم العائلة الإمبراطورية المعنية إلى كنيات يختارونها، وهي غالبا ما تكون صفات و لا تعبر عن أصول عرقية أو مواطن جغرافية كانت مسقط رأس المعني أو أحد أسلافه.

و هكذا فإن وثائقنا في هذا المضمون تبين أن النواة الأساسية في مجتمع مدينة مادور كانت مشكلة من جنود قدماء اكتسبوا حق المواطنة و حملوا أسماء العائلات الإمبراطورية. و سواء كانوا أغلبية عددية في بداية الأمر أم كانوا دون ذلك فإنهم كانوا أغلبية مؤثرة في بقية العناصر البشرية المتعايشة في فضاء مدينة مادور و إقليمها الإداري.

و يجب التنبيه هنا إلى أن نواة هذا العنصر المؤثر كانت محدودة العدد في بداية النشأة (تأسيس المستعمرة)، غير أننا نجهل عدد أفرادها الأوائل لغياب الوثائق و المستندات، ومع ذلك فإن عددها لا بد أنه كان مناسبا لحماية المستوطنة الناشئة التي غرست في محيط معادي للوجود الأجنبي. و يظهر من تطور عمران المدينة أن العناصر المؤسسة قد استقرت في محيط الفوروم الذي يتمركز في وسط المدينة ، وهو حيز محدود الاتساع فيما يظهر من هياكله الرسمية كمبنى المجلس البلدي و مساحة الساحة العامة المتواضعين .

و حسب شواهد القبور المؤكدة لقدماء الجنود الذين توفوا بمادور فإن هذه الفئة الفئة من الناس لم تحل دفعة واحدة بهذه المدينة ، بل إن بعض أولئك المحاربين أتى فيما فيما بعد إلى مادور و توفي بها. من ذلك أن بعض شواهد قبورهم تعاصر زمن الأباطرة الأباطرة السفيريين[٢٢]. ومن ثم فإن تقاطر عناصر جديدة من فئة الجنود المسرحين على على مادور دون انقطاع يصعب علينا مهمة تصنيف عناصر السكان تبعا لمهنهم الأصلية، أي الأصلية، أي التعرف على مجموعة الجنود الأوائل و مجموعة الوافدين من ذوي المهن الأخرى المهن الأخرى كالمزارعين الإيطاليين الذين تحصلوا على أراضي بإقليم مادور أو التجار و أو التجار و الحرفيين و غيرهم ممن التحقوا بهذه المستوطنة بعد أن تهيأت فيها فرص فرص العيش الآمن و الرخاء الجذاب. و حسب الشواهد الأثرية فإن هذه العناصر قد تسللت إلى قد تسللت إلى مادور من كل صوب سواء من إيطاليا أو من مدن متوسطية مختلفة أو من حواضر أو من حواضر إفريقة مجاورة.

تنبئنا نقوش مادور أن عددا كبيرا ممن تحصلوا على المواطنة الرومانية و حلوا و حلوا بمادور كمؤسسين ينتسبون إلى الأسرة الإمبراطورية فلافيا Flavia التي تسمى بها تسمى بها رجال و نساء من ذلك الرعيل الأول في صيغة فلافيوس Flavius ، فلافيا فلافيا Flavia. و هي صيغة تكررت في نقوش مادور حوالي ٨٨ مرة[٢٣]. كما تردد في وثائق تردد في وثائق هذه المدينة اسم العائلة اليوليانية Iulii التي منح أباطرتها حق المواطنة للجنود المسرحين بشمال إفريقيا ممن انتموا إلى الجيش الثالث الأوغسطي ، ثم ، ثم انحدر هذا الاسم إلى أبناء و أحفاد أولئك الجنود الذين حلوا بمادور عند إنشائها

22 I.L.A., I, 2128-2130.

23 Gsell (S.) , op.cit. p.12.

أو بعد ذلك. و قد لوحظ أن ما يزيد عن ١٥٦ شخصا مادوريا حمل الاسم اليولياني و كذلك و كذلك الشأن بالنسبة لاسم عائلة الأباطرة الكلوديين الذي عثر على ما لا يقل عن ١٠٩ ١٠٩ أسماء مشتقة منه حملها مادوريون هم أحفاد قدماء جنود تحصلوا على المواطنة المواطنة الرومانية في عهد كلوديوس، هذا فضلا عن أسماء عائلات سيناتورية و إمبراطورية إمبراطورية كثيرة تردد ذكرها تكرارا في نقوش مادور عشرات المرات، لكننا نجهل هوية نجهل هوية المنضويين تحت هذه الأسماء و لاندري إن كانوا من فئة المرفعين إلى درجة درجة المواطنة عن طريق حرفة الجندية أم أنهم حلوا بمادور حاملين هذه الأسماء بحكم بحكم الانتماء العائلي أو الولاء؟

ومهما كان الأمر فإن العناصر البشرية التي شكلت المجتمع المادوري ضمن الإطار الروماني كان يغلب عليها في بداية الأمر عنصر الجنود المسرحين، ثم أخذت ترتفع فيه نسبة المدنيين القادمين من حواضر و أقاليم متوسطية مختلفة و عنصر الأهالي المندمجين. و قد ظهرت علامات ذلك التغير الذي برز في شكل نمو ديمغرافي و تطور مدني في اتساع المساحة العمرانية لمادور حيث خرجت من إطارها العتيق (الحي العتيق) و ظهرت أحياء جديدة في محيط النواة العمرانية الأصلي.

مظاهر الثقافة و الرقي المدني:

نبوغ الشخصيات: ١-أبوليوس Apoleius:

لعل حاضرة مادور من المدن الإفريقية القليلة التي تردد اسمها كثيرا على لسان الأدباء و المؤرخين مقترنا باسم ابنها أبوليوس الذي طوت شهرته الآفاق، و حاز مكانة مرموقة في محافل الفكر و الأدب اللاتيني، و من خلاله حظيت بلدته و مسقط رأسه بتقدير و اعتبار كبيرين. فهل كانت مادور أهلا لهذه المنزلة؟ و بعبارة أخرى هل توفر في البلدة الصغيرة المعزولة في العمق النوميدي مناخ ملائم لنهضة تعليمية صالحة و سليمة مكنت شخصية الطفل أبوليوس من التفتح و النبوغ ؟ أم أن ذلك النبوغ عبارة عن طفرة جادت بها الصدف و لا علاقة لها بمناخ ثقافي خصب عرفته مادور في تلك الحقبة من تاريخها؟

لكي نتلمس عناصر الإجابة على هذا السؤال يحسن بنا إمعان النظر في الشواهد الشواهد الأثرية لموقع مادور عسى أن نلاحظ فيها ما يشير إلى أسس نهضة تعليمية أو مناخ تعليمية أو مناخ ثقافي سبق عهد أبوليوس أو عاصره. إن معلوماتنا الحالية لا تشجعنا على تشجعنا على القول بوجود هياكل يمكن أن تصنف في إطار المؤسسات الثقافية و التعليمية التعليمية بمادور، باستثناء مكان يفترض أنه كان مدرسة و تحول فيما بعد إلى كنيسة [٢٤].

كنيسة [٢٤]. كما أن الدلائل التي تشير إلى وجود تقاليد ثقافية عريقة بالمدينة كاستعمال كاستعمال اللغة الإغريقية أو البونية غير متوفرة ، إذ باستثناء بعض شواهد القبور التي القبور التي حملت أسماء أصحابها بالإغريقية و لوحة نذرية بالبونية و نقش ليبي معزول ، معزول ، لا يبدو أن ذلك يعبر عن وجود نخبة مثقفة تنتمي إلى الحضارة الهلينية الرائدة الرائدة أو إلى التقاليد السامية العريقة بحيث تشكل معينا نهل منه جيل أبوليوس أو من من سبقه. و من ثم فالمناخ الذي ترعرع فيه كاتبنا هذا خلال العقدين الثالث و الرابع من الرابع من القرن الثاني كان مشابها لما كان عليه حال جل المدن الرومانية التي توفر توفر لها رخاء اقتصادي و نمت فيه نخبة من أحفاد المزارعين الرومان و توافد إليها إليها مهاجرون من حواضر متوسطية أكثر رقيا و أرفع مستوى في مجالات الفكر و الأدب و الفكر و الأدب و الفنون و مختلف المهارات، فأثر ذلك على الفئة الثرية بمادور التي راحت التي راحت تسعى للتشبه بالفئات المماثلة لها بالحواضر المذكورة. فكان التسابق لتعليم لتعليم الأطفال و توفير إمكانات التمدرس و جلب المعلمين و الفنانين المهرة، و هذا و هذا ما ساعد على توفر مناخ تعليمي مكن من تفتح ذهنيات الأطفال و بروز النبهاء بروز النبهاء منهم أمثال أبوليوس الذي حرص أبوه الثري على أن يكون ابنه في طليعة طليعة أبناء المدينة علما و أدبا ليكون جديرا بوالده ذي الشهرة الرفيعة من حيث الوجاهة و الغنى حتى أن اسمه وصلنا أحاديا، أي دون كنية و لا اسم شخصي كما كان معتادا كان معتادا آنذاك، و لعل ذلك يرجع لاشتهار الرجل (الوالد و الولد) بهذا الاسم منفردا منفردا إلى حد أنهما لم يكونا في حاجة إلى الكنية و الاسم الشخصي.

ولد أبوليوس حوالي عام ١٢٥ م. بمادور، و هذا بناء على قوله الذي أشار فيه فيه إلى ولادته[٢٥]، و استنادا إلى كلامه أيضا فإن أباه كان من فئة أعيان مادور حيث كان حيث كان ينتمي إلى طبقة الديكوريونات[٢٦]. و كما أشرنا آنفا فنحن لا نعلم عن عائلته شيئا عائلته شيئا حيث تجنب أبوليوس نفسه التعريف بها، و ربما أنه لم يكن يرى في ذلك ضرورة ذلك ضرورة حيث اكتفى بالحديث عن شهرة والده و مكانته الاجتماعية . و كان أبوليوس يصرح أبوليوس يصرح بأنه ينتمي إلى أهل مادور بتعددهم الإثني (القبلي)، حيث يرى أنه جزء من جزء من أولئك القاطنين بإقليم جغرافي تتنازع السيادة عليه مجموعتان بشريتان مشهورتان مشهورتان هما الجيتول و النوميد، فعبر عن انتمائه لهذه الرقعة الجيو-سياسية بجملته بجملته الشهيرة التي أثارت جدلا بين المؤرخين حول انتمائه العرقي، و هي قوله مخاطبا مخاطبا أولئك القوم العتاة: أهلي الجيتول، أهلي النوميد SemiNumidam,

[٢٤] هي عبارة عن رأضية مستطيلة الشكل تحتوي على محراب ، و تقع بين الفوروم و الكاردو الجديد.

[25] Apoleius, de Platon , III, p.267.

[26] Apoleius , Apologie, 24.

SemiGaetulum[٢٧]. و أحسب أنه كان يقصد شيئا آخر غير النسب الإثني (العرقي)، (العرقي)، إنه كان يدعوهم إلى التخلي عن هذه العصبية التقليدية و الانصهار في الحياة الحياة الجديدة التي وفرتها روما لهم. و مما دعاني إلى هذا الفهم أن أبوليوس كان يزدري التمسك بتلابيب الثقافة المغايرة لثقافة عصره، حيث كان يعتبر المتحدثين باللغة باللغة البونية أو الليبية متخلفين و أنه يجدر بهم التخلي عن ذلك و استعمال اللسان اللسان اللاتيني، لأن سلوكهم ذاك غير جدير بالإنسان المتحضر[٢٨]. و اعتقاده هذا أو قناعته قناعته أدت به إلى إهمال جانب الانتماء العرقي في نظري، فشغفه الشديد بالثقافة اليونانية (الهلينستية) في إطار اللغة اللاتينية و السيادة الرومانية على العالم جعله يبغض ما عدا ذلك ويعتبره عامل تخلف يجب التخلص منه.

يظهر أن مدينة مادور لم تكن تتوفر فيها آنذاك مؤسسات التعليم النوعي لمرحلة ما بعد الطفولة، أي مستوى ما بعد التعليم الأولي، و من ثم لم يشبع ما كان متوفرا فيها من معارف نهم الطفل أبوليوس، فاضطر إلى شد الرحال نحو مدينة قرطاجة جريا وراء فضوله العلمي، كان ذلك في سن مبكرة نسبيا، ثم سافر إلى مدينة أثينا لمواصلة التحصيل، حيث قضى مدة كرع فيها من مناهل الفكر و الأدب و الفنون، و منها انتقل إلى روما فمارس المحاماة هنالك، وكانت المحاماة في روما مهنة المثقفين و الأدباء و رجال الفكر و السياسة. لكن الشاب أبوليوس لم تسعفه نفسه للبقاء في زخم عاصمة العالم فقفل عائدا إلى بلدته مادور حيث انتخب عضوا في مجلس الديكوريون و هو المنصب الذي شغله والده من قبل. غير أنه عزم علىالسفر إلى الإسكندرية عاصمة العالم الهلينستي الشهيرة ليغترف من معالم الفكر اليوناني هنالك، كان ذلك حوالي سنة ١٥٥ م. لكن الحظ كان يضمر له أمرا آخر ، ذلك أنه ما إن حل بمدينة طرابلس Oea بليبيا حتى طاب له المقام و غير رأيه فمكث بها و اختار قرينة حياته و عاش هنالك عدة سنوات. ويبدو حسب بعض الروايات أنه عاد إلى قرطاجة و استقر بها نهائيا، و منها كان يزور من حين لآخر بلدته مادور التي أحبها و أحبه أهلها كثيرا، و لا ندري إن مارس التدريس بها أو أنه قام بنشاطات فكرية و أدبية في هذه المدينة التي اقترن اسمه بها.

علينا بعد هذا أن نتساءل عن هوية أبوليوس الثقافية و مجالات المعرفة الإنسانية الإنسانية التي أجاد فيها و أبدع. إن اللغة اللاتينية كانت لسانه الصداح، فهي لغته بالأصالة منذ نعومة أظفاره و لغة المدرسة التي فتح فيها عينيه على العالم الخارجي، و الخارجي، و هي اللغة التي تفقه فيها لفظا بليغا و أدبا جميلا. أما اللغة اليونانية كانت سيدة المحافل العلمية و المجالس الأدبية و الحلقات الفكرية (الفلسفية) في الأوساط

[27] Ibid.

[28] Apoleius, Apol. 98.

الأوساط المثقفة بالحواضر المتوسطية، فإن صاحبنا أبوليوس كان ملما بها، شغوفا بمضامينها الفكرية ، فأخذ من مناهلها الفكرية جرعا قوية غذت شخصيته التواقة إلى الفكر إلى الفكر التجريدي، و من ثم كان للفكر الأفلاطوني الاشعاع الباهر الذي ملك عليه نفسه. و نفسه. و هكذا تبلورت شخصية أبوليوس الفكرية في ذات مزدوجة الشكل و المضمون، بحيث المضمون، بحيث يمكن القول بأن نصفه إغريقي و نصفه الآخر لاتيني، على غرار ما قال عن ما قال عن نفسه بالنسبة للجيتول و النوميد.

أما مجالات المعرفة التي خاض فيها أبوليوس فقد كانت متنوعة و شاملة. و إذا و إذا أغضضنا الطرف عن جانب المبالغة الوارد في إحدى النقوش اللاتينية المخصصة لأبوليوس المخصصة لأبوليوس في مادور [٢٩] ، فإن الرجل كان ضليعا في ميادين المعرفة التسعة المعروفة التسعة المعروفة آنذاك و صاحب تآليف فيها، وهي الطب والتاريخ و الطبيعة و الفلك و الفلك و الرياضيات و الزراعة والأدب بما فيه القصة و نظم الشعر بأنواعه من هزل ومجون و هزل ومجون و ما إلى ذلك من ضروب الشعر بالإضافة إلى الميادين الفلسفية . و قد كتب في قد كتب في جميع الموضوعات بكفاءة و إبداع، و كان يطمح لأن يكون فيلسوفا في عصر خبت فيه عصر خبت فيه جذوة الفلسفة[٣٠] ، إلا أنه كان خطيبا مفوها و محاورا بارعا و محاضرا محاضرا مؤثرا[٣١]. و كان يرى عكس أبناء جيله من مثقفي إفريقيا الرومانية أن الفلسفة هي الفلسفة هي "العلم الملكي الذي يجب اقتحامه ليس فقط من أجل حياة أفضل و لكن كذلك من كذلك من أجل القول الأجمل"[٣٢] . و كان شديد الإعجاب بالفيلسوف أفلاطون حتى أنه كان يصفه أنه كان يصفه بالرجل المعبود الذي ملك عليه حياته فترجم له كتاب فيدون Phédon، و فيدون Phédon، و تناول فلسفته شرحا و تعليقا[٣٣]. و كان يلقب نفسه بالفيلسوف الفلاطوني[٣٤]. و قد ورد اسمه عند أوغسطين أسقف هيبون (عنابة) مقترنا بأفلاطون كذلك[٣٥]. كذلك[٣٥]. كما جاء اسمه في كثير من النقوش اللاتينية بمادور و غير مادور مجردا من الكنية من الكنية و لكنه موصوف بالأفلاطوني أحيانا[٣٦] .

---

[29] I.L.A., I, 2115.

[٣٠] كان أترابه يزدرون الفلسفة ويرون فيها عائقا للبلاغة عماد ثقافة تلك العصر ، و هذا ما كان يجهر به رفيقه فرانطون Franton القوطي (نسبة إلى قوطا Cirta).

[31] Gsell (S.) .op.cit. p.31.

[32] Apoleius , De Platone, III.

[33] Ibid.

[34] Apoleius, Metamorphose , XI, 27. “Philosophum Platoneum Madaurensem” .

[35] Augustin , Civ. Dei, VIII, 14: “Apoleius Platonicus Madauensis”.

[36] I.l.A. , I, 2236; 2276-2279.

من أشهر مؤلفات أبوليوس التي وصلتنا كتابه في موضوع الدفاعات Apologia و كتاب المسوخ أو الحمار الذهبي Metamorphose ، و فيدون Phédon و أفلاطون De Platone. و هي كتب فيها مطارحات فكرية و أدبية عالية المستوى جعلت من صاحبها شخصية مرموقة في عالم الفكر و الأدب اللاتيني تجاوزت شهرتها حدود إفريقيا الرومانية.

٢-مكسيم Maxime:

أما مكسيم المادوري المعروف بعالم النحو اللاتيني الذي عاش في زمن متأخر حيث أنه عاصر الأسقف أوغسطين (القرن الخامس)، فإننا نذكره في هذه العجالة كشاهد قوي على الأثر المعنوي الذي تركته شخصية أبوليوس في مادور خاصة و في المدن الإفريقية عامة. ذلك أن هذه الحاضرة أخذت تشتهر بكونها منبتا خصبا لرجال العلم والمعرفة بفضل مدارسها التي كان يقوم عليها معلمون بارعون فاقوا غيرهم تحصيلا و توصيلا. فكانت العائلات الثرية بالمدن المجاورة لمادور حريصة على إرسال أطفالها إلى هذه الحاضرة لمزاولة تعلمهم ابتغاء الفوز و النبوغ و اقتداء بأبوليوس. و الظاهر أن مدارس مادور تخصص معلموها في فنون تعليمية معينة كاللغة اللاتنية و قواعدها و وآدابها، حيث برز أحد شيوخ هذا التخصص الهام بمادور ، هو ماكسيم الملقب بالنحوي لما كان له من إسهام في التفقه في اللغة اللاتينية و قواعدها، فكان لذلك أثره على تلامذته بهذه المدينة و خارجها.

ليس لدينا معلومات حول هذا المعلم المادوري الكفء ذي الصيت الذائع. إذ لا إذ لا نعلم متى ولد و لا كيف عاش كما نجهل تاريخ وفاته. و لا نعرف عنه سوى أنه تبادل أنه تبادل الرسائل الأدبية مع أسقف هيبون أوغسطين دون أن يتأثر بمواعظ هذا الأخير في الأخير في المسيحية ، فكان يدافع عن عقيدته الوثنية راضيا بمهنته كمدرس. و لا ندري إن ندري إن كان أوغسطين قد تعلم عنه أو زامله في الدراسة لأنه زاول دراسته في مادور في مادور في المرحلة الثانية من عمر الدراسة، إذ نعلم أنه بعد أن تلقى تعليمه الأولي(الابتدائي) بمدارس تغاست Thagaste (سوق اهراس) اختار له والده ،و كان لا كان لا يزال وثنيا، متابعة الدراسة بمدينة مادور المشهورة مدارسها بالتفوق عن غيرها من غيرها من مؤسسات التعليم بالمدن الإفريقية الأخرى، و ذلك بقصد أن ينشأ الطفل أوغسطين أوغسطين على تذوق الأدب و فن القول الجميل من بلاغة و بيان وبديع ممن اشتهرت بها اشتهرت بها مادور[٣٧] . ورغم أن أوغسطين لم يقض سوى فترة قصيرة في هذه المدينة إلا أنه المدينة إلا أنه احتفظ بذكريات جميلة عنها و عن معالمها و سكانها الذين وصفهم بأهله و

37 Augustin , Confessions, II, 2, 4 .

بأهله و ذويه[٣٨] دون أن ينسى حسن المعاملة التي حظي بها و هو طالب عندهم منكب على منكب على الدراسة والتحصيل، مما يدل على عناية المادوريين بشؤون التعليم و تشجيعهم تشجيعهم لطلابه و سخائهم في سبيل العلم و المعرفة . هذا مع العلم أن أوغسطين كان مستاء كان مستاء من احتفاظ المادوريين بوثنيتهم و دفاع رجالاتهم عن الشرك، لكن ذلك لم ينسه لم ينسه فضل هؤلاء عليه فأقر لهم عرفانا بذلك في كتاباته[٣٩] التي وجه بعضها إلى أصدقائه بمادور يعظهم فيها و يدعوهم إلى التخلي عن الوثنية واعتناق المسيحية.

الأشكـــال

١- قطعة نقدية جديدة لملك سيفكس
٢- منظر عام لأطلال مادور
٣- شارع الكاردو القديم
٤- مدرسة مادور
٥- مرتسم عام للفوروم وملحقاته، السوح، القلعة البيزنطية

[38] // , Lettres , CC XXII, 7 ; XVII, 1.

[39] Augustin , Conf. Op.cit. ; Lettres, CC XXVII, 7.

قطعة نقد جديدة للملك سيفكس

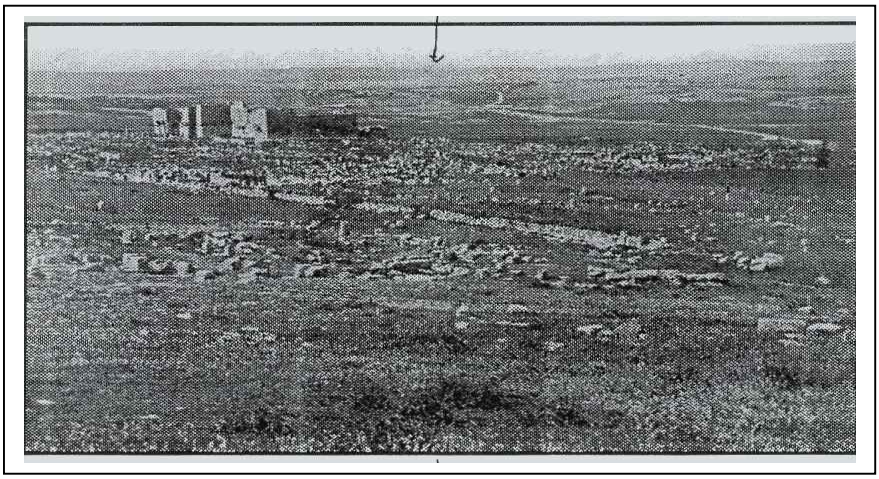

منظر عام لأطلال مادور -Madauros

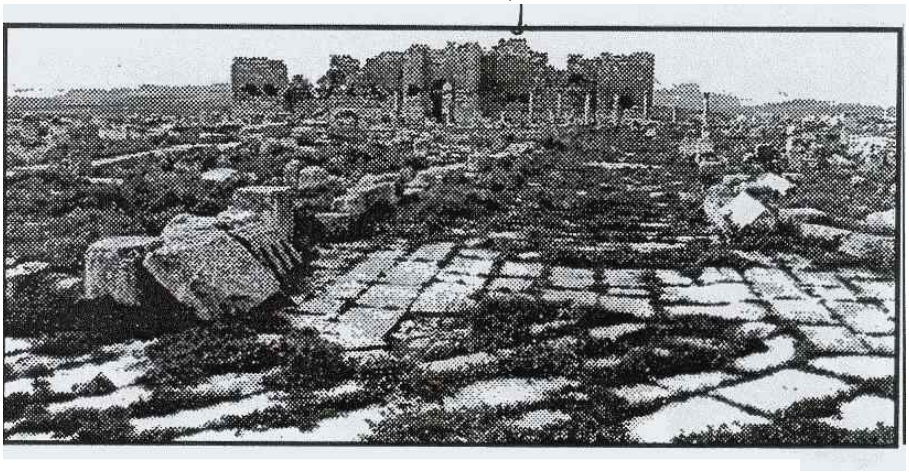

شارع الكاردو القديم – نقطة التقاطع مع الديكومانوس الجديد

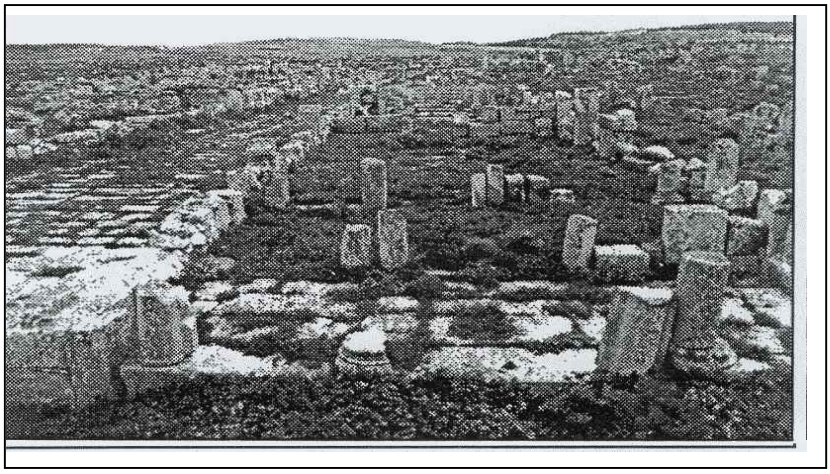

مدرسة مادورهب رأي Gsell

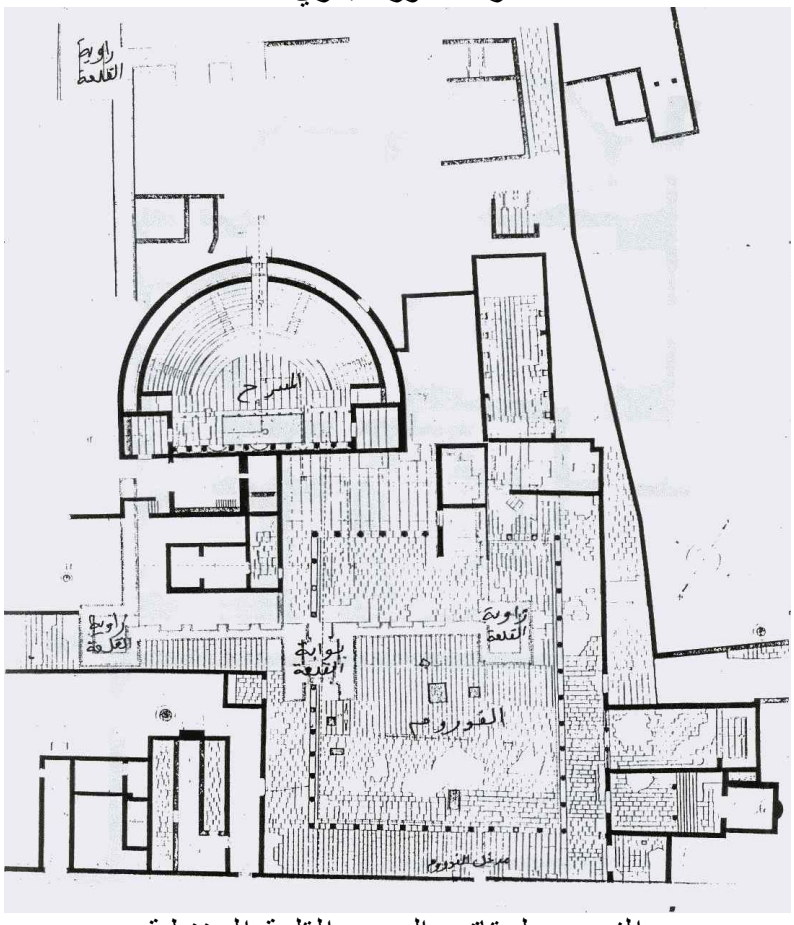

الفوروم وملحقاته، المسرح، القلعة البيزنطية